كهذا، تعاني اي استراتيجية نضالية ، تتكل على النشاط المسلح، من الضائقة، مما يستوجب تطوير اسسها الاخرى. لكن أفضليات النضال السياسي ـ الجماهيري لا تنحصر في البدائل المؤقتة للعمل العسكري حين يحاصر، بل وتشمل خلق الضغط المعنوي والكياني الفعلي على اسرائيل. لذلك، يجب عدم تناسي الخصوصيات الفريدة للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي، والمتمثلة في حقائق شطب شعب بكامله عن الخارطة السياسية، ونكران وجوده، وماضيه، وارتباط المشروع الصهيوني المستوطن بعقيدة ـ ذريعة دينية وتاريخية. فالحالة الفلسطينية تتميز عن الجزائرية، مثلاً، في ان التحدي كياني وسياسي وحضاري وليس مجرّد تحد عادي، اي مجرّد انعكاس لموازين القوى العسكرية، بحيث كان في مقدور الثوار الجزائريين ان يحملوا فرنسا على الانسحاب في نهاية الامر، بعد ان لعب العمل العسكري دوراً بارزاً. لكن انتصار جبهة التحرير الوطنية جاء في لحظة ضعفها العسكري، فكان الاستقلال بفضل التراكم السياسي والمعنوي، وليس بفضل الخسائر الفرنسية المادية فحسب. فهل يحصر الفلسطينيون المجابهة التاريخية مع اسرائيل بالمجال العسكري، حيث هي الاقوى فيه، ام يزيلون ذلك التفوق بما هم متفوقون به ؟

تتعزز أهمية العمل السياسي ـ الجماهيري الفلسطيني اكثر عند الانتقال الى الركيزة الدبلوماسية للنضال الفلسطيني. فقد حققت م.ت.ف. المكاسب الهامة، والفريدة، في تاريخ حركات التحرر، على صعيد اكتساب الشرعية والاعتراف . لكن الركيزة الدبلوماسية، والعمليات الدبلوماسية الدولية، اثبتت قدرة محدودة على ردع اسرائيل، وعلى فرض الحقوق الفلسطينية عليها. لذلك، ينبغي على م.ت.ف. ان تزيد مصداقيتها وقدرتها على تحريك، أو عرقلة، الامور في الشرق الاوسط، الى جانب حاجتها الى الامساك بالمبادرة الدبلوماسية. واذا كانت المصداقية والمبادرة الدبلوماسية اعتمدتا، سابقاً، على العمل العسكري الفلسطيني، فان محاصرته، وتغير الظروف المادية والسياسية لدى الفلسطينيين والعرب والاسرائيليين، تفرض التعديل نحو المرتكزات الجديدة. ان مفتاح فرض الذات، وخلق القوة المادية لدعم اي توجه سياسي، ودبلوماسي، في الخارج، يتمثل في تصعيد التحرك الجماهيري، وفي تنظيمه وتأطيره في الداخل.

ثمة اغراء واضح باللجوء الى المبادرات الدبلوماسية المثيرة والجريئة، على أمل ان تزيد هذه من الشقوق في داخل المجتمع الاسرائيلي، وان تقنع الغرب باعتدال م.ت.ف. وبمطالبها. ان ايلاء هذه المبادرات اهمية خاصة لا ضير فيه، لكن نجاحها مرهون بارتكازها على ارضية متينة من التحرك الجماهيري والسياسي الفلسطيني، تكون اساساً لبلورة استراتيجية للمقاومة المدنية في الارض المحتلة ترافق بناء التقاليد والأطر النقابية والثقافية والاجتماعية الجماعية، بحيث يتضافر شكلا النضال، السلبي والايجابي؛ ان بناء الاساس السياسي ـ الجماهيري هو مصدر القوة المادية التي تحول الدبلوماسية الفلسطينية الى قبضة فولاذية، بقفاز حريري.